الظواهر الصوتية الوظائفية في اللغة العربية

أ.سهل ليلى

الملخص:

تميل اللغة العربية في تطورها نحو السهولة والتيسير فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة النطق، وتستبدلها بأصوات أخرى لا تتطلب جهدا عضليا كبيرا. فجاءت هذه الدراسة لتوضح بعض الظواهر الصوتية الوظائفية في اللغة العربية من مماثلة، ومخالفة، وإدغام، و قلب مكاني. ودورها في توجيه الدلالة، حيث تخضع التغيرات الصوتية التي تطرأ على الأصوات اللغوية لقوانين تحكم بنيتها، وتسهم بفاعلية في توضيح معالمها التغيرية من أجل إقرار شكلية الانسجام الصوتي وتيار الكلام، كما أن دراسة اللغة تبدأ بدراسة أصواتها، والدور التي تلعبه هذه الأصوات في نظام التواصل؛ لأن الرموز المستعملة في كتابة لغة من اللغات هي أولا وقبل كل شيء أصوات تسمع.

RÉSUMÉ:

La langue arabe tend à évoluer vers la faciliter et la simplification et essayé de se débarrasser de la prononciation difficile des voix, en substitué avec d'autres voix qui n'exigez pas un itinéraire intramusculaire de grand effort. Cette étude est venue pour montrer quelques phénomènes acoustiques fonctionnels dans la langue arabe soit; l'assimilation, la contrariété, la contraction, et le basculement spatial, et son rôle dans l'orientement significatif, ou les changements de la voix vote sur des changements aux lois régissant sur la structure linguistique, et contribuez effectivement pour clarifier les trait de **changements de bornes limites, Pour apporter l'approbation formel d'harmonie acoustique et du courant de la parole.**

Aussi bien que, L'étude de la langue députe par l'étude de ces voix, et le rôle joué par ces voix dans le système de communication, Puisque les codes utilisés dans l'écriture des langues sont en premier lieu des voix entendues.

تخضع التغيرات الصوتية التي تطرأ على الأصوات اللغوية لقوانين صوتية تحكم بنيتها وتسهم بفاعلية في توضيح معالمها التغايرية من أجل إقرار شكلية الانسجام الصوتي في اللفظ وتيار الكلام[1]. وإن التغيرات التي أثارت اهتمام المعنيين بالبحث اللغوي من جوانبه الصوتية إنما تحدث في الكلمة كنتيجة حتمية لجملة من الاتجاهات الصوتية التي تحكم منظومتها الإنتاجية، وقد استأنس البعض في أن يستعير لها مصطلح قوانين، تشبها بالقوانين الطبيعية أو الكيميائية أو الفيزيائية.

ونعلم أن دراسة اللغة تبدأ بدراسة أصواتها والدور الذي تلعبه هذه الأصوات في نظام التواصل، لأن الرموز المستعملة في كتابة لغة من اللغات هي أولا وقبل كل شيء أصوات تسمع. لهذا سنبين أهم المظاهر الصوتية الوظائفية كما يلي:

1-المماثلة الصوتية: Assimilation:

تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض عند النطق بها في الكلمات والجمل، فتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها لكي تتفق في المخرج أو في الصفة مع الأصوات الأخرى المحيطة بها في الكلام، فيحدث عن ذلك نوع من التوافق والانسجام بين الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات. ذلك أن أصوات اللغة تختلف فيما بينها في المخارج والشدة والرخاوة والجهر والهمس وما إلى ذلك. فكل صوت يحاول أن يجذب الآخر إلى ناحيته ويجعله يتماثل معه في صفاته كلها أو في بعضها[2].

و ينقل الدكتور أحمد مختار عمر أن المماثلة تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلا جزئيا أو كليا[3]. فالأصوات تتأثر ببعضها البعض في نسب متفاوتة. فمن الأصوات ما يقع عليه التأثر بشكل سريع مما يؤدي إلى الاندماج في غيره، والبعض الآخر لا يمتلك خاصية الاستجابة الفورية بهذا التأثر[4]. ويبقى الهدف الصوتي وراء هذا التأثر هو تحقيق نوع من التشابه أو التماثل بغية التقارب في الصفة والمخرج اقتصادا في الجهد العضلي المبذول[5].

وتهدف المماثلة إلى تيسير جانب اللفظ عن طريق تيسير النطق ولا تلقى بالا إلى الجانب الدلالي الذي قد يتأثر نتيجة تقارب أو تطابق الصوتين.

و هناك اصطلاحات لعلماء الأصوات في أنواع التأثر الناتجة عن المماثلة:

1-التأثر المقبل الكلي في حالة الاتصال: من أمثلته:

أ: تتأثر تاء الافتعال دائما بالدال أو بالطاء قبلها فتقلب دالا أو طاء مثل:

اد ترك: ادّرك

اطتلب: اطّلب

ب: تتأثر تاء الافتعال غالبا بالذال أو بالصاد أو بالضاد قبلها فتقلب ذالا أو صادا مثل:

اذتكر: اذّكر، اصتبر:اصّبر، اضتجع: اضّجع.

2-التأثر المقبل الكلي في حالة الانفصال: من أمثلته:
تتأثر حركة الضم في ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكر (ه) والجمع المذكر (هم) والجمع المؤنث(هنّ) والمثنى (هما) بما قبلها كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء، فتقلب الضمة كسرة: مثل برجلِهُ: برجلِهِ، فيهُ: فيهِ، عليْهُ: عليهِ، بصاحبِهُم: بصاحبِهِم، قاضيُهُم: قاضِيهِم، بهُنّ: بهنّ، بِهُما: بِهِما. وفي قراءة حفص عن عاصم: "و ما أنسانيْهُ إلا الشيطان"[6] على الأصل في حركة هذا الضمير، وفيها كذلك: "و من أوفى بما عاهد عليهُ الله"[7].

3-التأثر المقبل الجزئي في حالة الاتصال: من أمثلته:

أ: تتأثر تاء الافتعال بالصاد أو بالضاد أو بالزاي قبلها فتقلب طاء في الحالتين الأوليين، ودالا في الحالة الثالثة، مثل: اصتبغ: اصطبغ، اضتجع: اضطجع، ازتجر: ازدجر.
ب: تتأثر الثاء بالأصوات المجهورة قبلها فتقلب ذالا في بعض اللهجات القديمة مثل: يجثو: يجذو، تلعثم: تلعذم.
ج: تتأثر تاء الفاعل بلام الفعل إذا كانت صوتا مفخما، فتقلب التاء طاء في بعض اللهجات القديمة، وهي تلك التي يقول أصحابها: "فَحَصْطُ برجلي" بدلا من فحصتُ"[8].

4-التأثر المقبل الجزئي في حالة الانفصال: من أمثلته:

أ: تتأثر السين المهموسة بالراء المجهورة قبلها، فتقلب إلى نظيرها المجهور وهو الذي في كلمة "مهراس" التي صارت "مهراز" في لهجة الأندلس العربية في القرن السادس الهجري[9].
ب: تتأثر الدال بالراء قبلها، في لهجة الأندلس العربية في القرن الرابع الهجري فتقلب إلى نظيرها المفخم وهو الضاد لأن الراء صوت ذو قيمة تفخيمية مثل: معربد: معربض[10].
5-التأثر المدبر الكلي في حالة الاتصال: من أمثلته:
أ: في مضارع صيغتي تفعّل وتفاعل، تتأثر التاء بعد تسكينها للتخفيف بفاء الفعل إذا كانت صوتا من أصوات الصفير أو الأسنان، ثم قيست على ذلك صيغة الفعل الماضي مثل[11]:

يَتَذكّر: يتْذكر: يذكّر ← اذكر (في الماضي)
يتطّهر: يتْطهر: يطّهر ← اطّهر (في الماضي)
يتدارأ: يتْدارأ: يدّارأ ← ادارأ (في الماضي)
يتثاقل: يتْقال: يثّاقل ← اثّاقل (في الماضي)

وقد حدث هذا في اللغة العربية القديمة، وجاء ذلك في القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع الصيغة الأخرى التي لم يحدث فيها تطور كقوله تعالى: "اثاقلتم إلى الأرض"[12]. و'بل ادّارك علمهم في الآخرة)[13].

ولعل هذه الظاهرة كانت في سبيل التطور في العربية الفصحى عندما جاء الإسلام، ولذلك نجد أمثلتها في القرآن الكريم. وقد ظل هذا التطور سائرا في طريقه في لهجات الخطاب حتى ساد وحده، وقضى على الظاهرة القديمة. ففي اللهجة العامية المصرية نقول: فلان اصّدعت دماغه، واسّرع في كلامه، واشّهى الأكل، فلا يقال فيها مثلا: فلان تصدعت دماغه وتسرّع في كلامه وتشهّى الأكل.
ب: تتأثر النون في إنْ ومِنْ وعَنْ بالميم واللام التي تليها فتقلب ميما أو لاما مثل إمّا وأمّا وإلا وممّا وعمّا أو ما إلى ذلك.

6-التأثر المدبر الكلي في حالة الانفصال: ومن أمثلته:
تطور كسرة الميم إلى فتحة في صيغتي اسم الآلة:مفعل و مِفْعَلة في لهجة الأندلس العربية إذ تتأثر حركة الميم بحركة العين مثل مَقْود، مَطْرد للرمح الصغير ومَخدّة. وقد روى لنا ابن هشام اللخمي (ت 577هـ) أن الأندلس كانوا يقولون: مَصيدة، مَطرقة، مَفرفة، مَرْودة، مَنْجل، مَكْنسة[14]. ومن أمثلته كلمة "مُنذ" في العربية فأصلها مِنْ+ ذو فقلبت كسرة الميم ضمة تأثرا بضمة الذال بعدها.

7-التأثر المدبر الجزئي في حالة الاتصال:

أ: في اللهجات العربية القديمة تتحول الصاد قبل الدال إلى زاي مثل يزدق في: يصدق. قال ابن السكيت: و"العرب تقول: ازدق بمعنى اصدق"[15]. ولم يعّين اللغويون القبيلة التي ينتمي إليها هذا الإبدال، وأغلب الظن أن الزاي هنا كانت مفخمة، غير أنهم كتبوها بالزاي المرققة، لعدم وجود رمز للزاي المفخمة في الكتابة العربية[16].
ب: تقول العامة في عصرنا الحاضر: "يسحف" بدلا من يزحف"، فقد تأثرت الزاي في هذا المثال، وهي صوت مجهور، بالحاء التالية لها وهي صوت مهموس فقلبت الزاي إلى نظيرها المهموس وهو السين.

8-التأثر المدبر الجزئي في حالة الانفصال: من أمثلته ما يلي:

أ: الصاد قبل الراء تقلب زايا في بعض قراءات القرآن الكريم، مثل زراط في صراط.
ب: روى ابن هشام اللخمي أن الناس كانوا يقولون في الأندلس والمغرب في القرن السادس الهجري في سرداب: زرداب[17].
ج: والناس في مصر وبعض البلاد العربية يطلقون على السعتر: زعتر[18].

المخالفـــة الصوتية Dissmilation:

هناك تغير صوتي آخر يسير عكس اتجاه المماثلة وهو ما يعرف عند علماء الأصوات باسم المخالفة، وهي أن يعمد إلى صوتين متماثلين تماما في كلمة من الكلمات، فيغير أحدهما إلى صوت آخر يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة أو من الأصوات

المتوسطة أو المائعة. وينظر علماء الدراسات الصوتية إلى ظاهرة المخالفة على أنها الوضع الأمثل اللازم لإعادة الخلافات بين الأصوات، الأمر الذي لا يمكن الاستغناء عنه في إظهار قيم الفونيمات الاستقلالية، وهو أمر ضروري لتحقيق حالة التوازن.

ويعلل الدكتور أحمد مختار عمر حركة ظاهرة المخالفة بقوله: إن المخالفة ينظر إليها على أنها تهدف إلى تيسير جانب الدلالة عن طريق المخالفة بين الأصوات ولا تلقي بالا إلى العامل النطقي الذي قد يتأثر نتيجة تباعد أو تخالف الصوتين[19].

ومن أمثلة ظاهرة المخالفة في اللغات السامية والعربية كلمة (شمس) والمعروف لدى علماء الساميات أن (الشين) في السامية الأم قلبت في العربية (سينا) ومقتضى ذلك أن تصير الكلمة في العربية (سمس) غير أن المخالفة بين السينين أدت إلى قلب الأولى شينا[20]. ومثال ذلك في العربية (قيراط ودينار) وبدلا من (قرّاط) و(دنّار) بدليل الجمع (قراريط) و(دنانير)، فيقول المبرد: والدليل على أن هذا إنما أبدل لاستثقال التضعيف قولك: دينار، وقيراط، والأصل: دنّار وقرّاط فأبدلت الياء للكسرة فلما فرقت بين المتضاعفين رجع الأصل فقلت: دنانير وقراريط وقريريط"[21].

و جاء في كتاب "لحن العوام" للزبيدي أن أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري يقولون (كرناسة) في (كراسة) كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة عَدَنْبس بدلا من الكلمة القديمة عدبّس[22]، وكان الناس في القرن الثاني الهجري في العراق يقولون في إجاص: "انجاص".

وفي ضوء هذا تفسر بعض الكلمات العامية منها كلمة (لخبط) التي يحدث فيها قلب مكاني من (لخبط) التي نتجت بطريق المخالفة الصوتية من الفعل القديم (خلّط).

وسمّى القدامى هاته الظاهرة بكراهية اجتماع حرفين من جنس واحد، وقد ذكر لها أمثلة من ذلك: ما ذكره الأصمعي: "الزحاليف والزحاليق" أثار تزلّج الصبيان من فوق طين أو رمل أو سطح أملس، فالظاهر أن الكلمة الأولى مأخوذة من الفعل (زحلف) الناتج بطريق المخالفة الصوتية من (زحّف) كما أن الكلمة الثانية (زحلوقة) مأخوذة من الفعل (زحلق) الناتج بطريق المخالفة الصوتية كذلك من الفعل (زلّق). ومن آثارها أيضا ما ذكر في بعض اللهجات العربية القديمة أن (لعل) تتحول إلى لعنّ)[23].

ومن المخالفة الصوتية؛ المخالفة بين حركتي الفتح المتتاليتين إذا كانت الأولى منهما طويلة، إذ تتحول الثانية منهما في هذه الحالة إلى كسرة، فالأصل في نون المثنى هو الفتح ولكن كُسرت في المصحف تبعا للمخالفة بدليل أنها لا تزال مفتوحة وقد استشهد الدارسون بقول بعض العرب: " أعرف منهما الأنف والعينانا".

وفي ضوء هذا يمكن تفسير نصب جمع المؤنث بالكسرة، أي أن الأصل هو نصب هذا الجمع بالفتحة، بدليل ما رواه الكوفيون عن العرب من قولهم "سمعتُ لغاتهم" وروى الخليل بن أحمد قولهم: رأيت بناتَك بالفتح لخفته على اللسان[24].

ومن قواعد الصرفيين في العربية أن الواو تقلب همزة، إذ تصدرت قبل واو متحركة مطلقا أو ساكنة متأصلة الواوية، نحو: أواصل فإن الأصل فيها وواصل لأنها جمع (واصلة)

وهناك المخالفة المتباعدة وتقع في الأصوات التي يفصل بينها فاصل من صوت آخر غير مناظر مثل[25]:

اخضوضر ← أصلها اخضرضر
اعشوشب ← أصلها اعشبشب
بغداد ← أصلها بغدان
أيهات ← أصلها هيهات عند أهل الحجاز.

وهناك أيضا المخالفة الكمية وغالبا ما تكون بين المقاطع الصوتية[26]:

له ← لهو
به ← بهي
لك ← لكي

ووجدنا أن السبب في المخالفة من الناحية الصوتية هو أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلي في النطق بهما في كلمة واحدة، ولتسيير هذا المجهود العضلي، يقلب أحد الصوتين صوتا آخر، من تلك الأصوات التي لا تتطلب مجهودا عضليا كاللام والميم والنون.

3-الإدغـــام: Complete Assimilation:

إن تحقيق ظاهرة الإدغام في المستوى الصوتي ذو غرض قصدي هو التخفيف والتيسير في عملية الإجراء النطقي، فاللسان يعلوه الثقل وهو يرتفع ويعود في اللحظة ذاتها ليرتفع مرة ثانية بغية تحقيق إنتاجية الصوتين، وشبّهت هذه الحالة بمشي الإنسان المقيد، أو كمن يعيد حديثا مسموعا مرتين، وفي هذا ثقل على المتكلم والسامع مما يوجب الإدغام.

ويذهب ابن السراج في أن الإدغام على ضروب:

أ: إدخال حرف في حرف، دون وجود حركة تفصل بين الحرفين.

ب: التقاء حرفين من سلالة واحدة، فيسكّن الأول ويدخل في جنس الثاني.

ج: التقاء حرفين متقاربي الصفة الإنتاجية (المخرج) فيبدل الأول حرفا من جنس آخر، ويدغم فيه ليتشكل من تلك صورة حرف واحد[27].

وتكاد مصنفات القدامى لا تخلو من ذكر مصطلح الإدغام على الرغم من غموض الوقوف على ماهيته، فمثلا علامة الإدغام عند الخليل بن أحمد التشديد[28]، ويبدو أن أكثرهم إدراكا لطبيعة هذه الظاهرة اللغوية "ابن جني" الذي يرى أن الإدغام هو التقريب الصوتي أي تقريب صوت من صوت، ويقع في درجات أقصاها حالة التماثل[29].

كما تكلم متقدمو القوم عن الإدغامين الصغير والكبير، فالأول وهو ما كان فيه الحرف الأول ساكن والثاني متحرك، والثاني ما كان فيه الحرف الأول متحرك والثاني ساكنا وسمي الأول كبيرا لشموليته في الحدوث الفعلي، ولتأثيره في تسكين الحرف المتحرك قبل إدغامه، وكذلك لاحتوائه جانبا من الصعوبة في التحقيق[30]. ومن أمثلة الإدغام نذكر قوله تعالى:

***"كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها"[31].**

"التاء مع الجيم: إدغام المتباعدين.

***"و جاءت سيارة"[32].**

التاء مع السين: إدغام المتباعدين

***"إلا ما حملت ظهورهما"[33]**

التاء مع الظاء: إدغام المتقاربين

وتتمثل الظاهرة الإدغامية بشكل واضح المعالم مع الوحدات اللغوية التي تحتوي بعد (أل) التعريف على الحروف الشمسية س/ش/د/ز/ط/ظ/ص/ض/د/ذ/ت/ث/ن. حيث تدغم مع هذه الأصوات وتتحول لامها إلى صوت مماثل لها بعدها حين يكون المخرجان متقاربين[34]. فقصد بالإدغام التيسير والتحقيق، لذلك أُدمج الصوتين المتماثلين ونطقها دفعة واحدة، وإن كانت هناك صعوبة يصادفها المتكلم في سلسلة التيار الكلامي.

القلب المكـــاني Metathesis:

القلب تبادل مكاني يحدث بين الأصوات في السلسلة الكلامية، وهو ظاهرة صرفية لا تخرج عن دائرة التقديم والتأخير في الحدث الصوتي.

يذكر "السيوطي" بخصوص ظاهرة القلب: القلب الصحيح عند البصريين مثل شاكي السلاح وشائك، أما ما يسميه الكوفيون القلب نحو جذب وجبذ، فليس بقلب عند البصريين، وإنما هما لغتان[35].

كما يظهر أن تدافع الحروف على اللسان والخطأ في إخراجها المتأتي من السرعة في النطق، السبب وراء شيوع هذه الظاهرة التي وجدت لها متنفسا فسيحا وسط القبائل البدوية، ذلك لأنها تتوخى السرعة في إخراج الكلمات والابتعاد عن المبالغة في التأنق بالألفاظ. ويبدو أن اللغات السامية عرفت القلب المكاني وحتى اللغات اللاتينية، مما يدلنا على قدم هذه الظاهرة وتأصلها لا في اللغات السامية المعروفة وحدها.

وعرفت لهجة باهلة إحدى القبائل العربية القديمة هذا اللون من الظواهر اللغوية، فعلق "ابن فارس" بالقول في كلمة (عُلُط): "إنما ذاك مقلوب والأصل "عُطُل" وهي المرأة التي لا حلي لها والقياس واحد.

كما عرفت لهجاتنا الحديثة القلب المكاني، ففي لهجة أهالي الإقليم الشمالي لمدينة البصرة (غِنِص) بدلا من (غصن) و(نعلنه) بدلا من (لعنه).

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن اللغة نظام يمتد على مساحة صوتية واسعة، يعبّر به كل قوم عن أغراضهم، هذا النظام وإن كانت تحكمه مجموعة من التطورات فإنها تبدو أكثر رسوخا في الذات التغيرية من مجرد رغبة كامنة في نفوس المتحدثين في اقتفاء أثر هذا العنقود اللغوي، أو الفونيم الصوتي توفيرا لجهد وإراحة لنفس وإرضاء لرغبة جامحة في جانب من جوانب التفسير.

ا لإحـا لات

1) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص 261.
2) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، دار الرياض، ط1، 1989، ص22.
3) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، القاهرة، 1991، ص 378.
4) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص283.
5) المرجع نفسه، ص 284.
6) الكهف: 63.
7) الفتح: 10.
8) سيبويه، الكتاب، ج2، ص423.
9) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص28.
10) أبو بكر الزبيدي، لحن العوام، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، القاهرة، 1964، ص296.
11) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص29.
12) التوبة: 38.
13) النمل: 66.
14) رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، القاهرة، 1967، ص237.
15) ابن السكيت، القلب والإبدال، بيروت، 1903، ص45.
16) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص34.
17) الشيخ محمد علي الدسوقي، تهذيب الألفاظ العامية، القاهرة، 1913، ص66.
18) المر جع نفسه، ص66.
19) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، القاهرة، 1991، ص386.
20) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص36.
21) المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، القاهرة، 1963، ج1، ص246.
22) أبو بكر الزبيدي، لحن العوام، ص35، 161.
23) سيبويه، الكتاب، ج2، ص401.
24) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، ط2، 1955، ج2، ص314.
25) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص297.
26) المرجع نفسه، ص298.
27) ابن السرّاج، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، بيروت، 1985، ج3، ص405.
28) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق د/مهدي المخزومي ود/ابراهيم السامرائي، بغداد، 1980، ج1، ص55.
29) ابن جني، الخصائص، ج2، ص141.
30) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص300.
31) النساء: 56.
32) يوسف: 19.
33) الأنعام: 146.
34) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص301.
35) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وآخرون، القاهرة، د ط، د ت، ج1، ص481.